المقدمة

شاءت إرادة الله أن يجعل من الطين بشرا سويا ، فكان آدم عليه السلام.

وشاءت إرادة الله أن يجعل من البشر نورا ، فكان محمد ﷺ .

وكان هذا الوجود لم يقدر إلا ليشهد انطلاقات لارتقاءات من الأدنى إلى الأعلى ، بل أن الوجود ذاته لا يتحقق إن لم يضم بين ثناياه درجات ليرتقى ويصعد من خلالها الإنسان ،ويتحقق الوجود أكثر وأكثر ، ويتمكن الموجود أكثر وأكثر إذا استمر ودام وتواصل صعوده على تلك الدرجات ، يدفعه في ذلك وإلى ذلك مدد يستمده من فطرته النقية والسوية - وأيضا - ما ترفده السماء من مدد آخر يعينه في مسيرة الارتقاء ، إذا حالت حوائل بينه وبين الفطرة أن تعينه في صعوده وارتقائه ، وخيرا الموجودين - أومن قدر له - من جمع بين الفطرة السوية والنقية ومدد السماء ، فهنا يتم الجمع بين الخير والخير ، ويكون هو - الموجود - مجمع أو ملتقى نور على نور.

وهذا متحقق في محمد - ﷺ - ، ولأمر ما جعله الله - عز وجل - خاتم النبيين والمرسلين ، وكأنه آخر درجة في سلم الارتقاءات ، أو آخر حلقة في سلسلة الصعود إلى أعلى .

إعلام وإخبار أنه - عنده - نهاية الارتقاءات وختام الصعود ، فليس بعده إرتقاء ، ولا يتجاوزه صعود .

ولأنه الخاتم فقد جمع له وجمع فيه كل ما يحتاجه الناس من مدد وعون .

ولأنه الخاتم فقد تجسدت فيه البشرية كأتم وأكمل وأصلح ما يكون .

ولأنه الخاتم فقد تمثلت فيه الإنسانية كأشرف وأرقى وأسمى ما تكون .

ولأنه الخاتم فقد وصل محمد إلى نهاية ما يمكن للقدرة البشرية أن تصل إليه ، ليس هذا فحسب بل تجاوز هذا بمراحل لم يصل إليها نبي أو رسول قبله .

وقد أدرك بنفسه هذا الأمر حتى قال في حجة الوداع وهو يخطب الناس "أيها الناس : إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه أبدا ، ولكنه إن يطمع فما سوى ذلك فقد رضى به ، مما تحقرون من أعمالكم ! فاحذروه على دينكم !"

وفي يوم عرفة من هذه الحجة العظيمة الجليلة نزل قوله عز وجل :

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ المائدة ٣

إكمال دين فلا نقص .

إتمام نعمة فلا قصور .

ورضا من الله بأن يكون الإسلام هو الدين المعترف به من قبل الله – عز وجل –

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾

آل عمران: ١٩

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾

آل عمران: ٨٥

ما شعور محمد – عليه السلام – وهو يتلو تلك الآيات ، وأن دعوته ورسالته قد حازت رضا وقبول الله – عز وجل – ؟

أظن أنه أسعد من وطأت قدماه أرض هذه البسيطة . أن جعل الله دعوته ورسالته مقبولة ومرضي عنها . ولأنه يعلم أنه قد بلغ وأدى ، وأنه لم يكن ليتسنى له ذلك لولا العون والمساعدة والتوفيق من الله ، وأن المنة والنعمة والفضل الذى منحه الله لمحمد لم يمنح مثله لأحد من خلقه ، فقد عبد الله – على قدر ما مكنته قدرته وأكثر – بما يتوازي وهذه المنة والنعمة والفضل ، فكان أعبد العابدين وأخلص الموحدين ، وأقرب المخلوقين إلى الخالق ، وكان – وما يزال – أشد حبا لبني الإنسان، فقد كانت أمنيته الكبرى أن يهدى جميع البشر – بلا استثناء – إلى الله، مهما تكبد من مشاق وتحمل من صعوبات ، دافعه في ذلك أمران :

- أن البشرية لن يقدر لها الأمن والاستقرار والسلام إلا إذا وضعت الله نصب عينيها ، وأنه خلق الخلق ليتحابوا ويتعاونوا ويتعاطفوا ويتراحموا ويسود بينهم الحب والمودة .
- أن لله حق على الناس ، وهو التوحيد والعبادة ، وأنه بدون تأدية هذا الحق فلا معنى للوجود ، وأن الإنسان مجرد جرم تائه في الفضاء السرمدي ، لا يدرى لماذا خلق ولا ما جدوى هذا الوجود ، لذا فالتوحيد والعبادة هما ما يجعلان للوجود معنى وقيمة ؛ لأنهما من أقوى الأواصر وأمتن الوشائج التي تربط بين الإنسان ومبدع هذا الوجود .

أدرك محمد - عليه السلام - بفطرته النقية وطبعه القويم تلك الحقائق الكبرى واستطاع بكل كفاءة ومقدرة أن يبسط تلك الحقائق ، بأن يجعلها أسلوب حياة وليست أفكار هائمة في الأذهان أو أقوال حائرة على الألسنة ، وهنا الفرق الشاسع بين محمد وغيره ، أو هذا ما أعطى محمدا هذا الطراز النادر والعظيم والراقي من الشخصية ،إنه لم يكن يدعو الناس أن يتراحموا أو يتناصفوا أو يتعادلوا أو يتحابوا أو يؤثر بعضهم بعضا ، وإنما كان هو نفسه الرحمة والإنصاف والعدل والحب والإيثار ، حينما تقرأ في سيرته ،ينالك العجب ، أن البعض لم يؤمن لأن محمد قد جادله أو ناقشه أو حاوره فأقنعه فأقتنع فآمن ، وأن البعض لم يؤمن لأن نفسه قد خضعت لعظمة القرآن وبلاغته ، ولكن البعض قد آمن بمحمد وبما جاء به ، حينما رأى أفعال وتصرفات محمد ، حينما لمس أسلوب وطريقة محمد في حياته وفي تعامله مع من حوله ، كبيرا أو صغيرا رجلا أو امراة شيخا أو شابا ،حيا أو ميتا مؤمنا أو كافرا ، مخلصا أو منافقا ، صديقا أو عدوا ، حيوانا أو جمادا ، حينما اقترب ودنا من شخصية محمد وبهرته هذه الشخصية في بساطتها ووضوحها ورقيها وسموها وصفائها وأريحيتها ، أدرك أنه أمام نوعية مختلفة من البشر، طراز أخر من الناس ، شخصية ترغمك إراديا واختيارا - وهنا العجب - أن تحبها

وتوقرها وتجلها وتطيعها فيما أمرت به ولم تؤمر به ، بل تدفعك دفعا أن تضحي بأثمن ما لديك في سبيل أن تنال رضاها .

تأمل آخر خطبة خطبها رسول الله وهو في مرضه الأخير ، وتأمل – جيدا – حالته الصحية .

"واشتدت وطأة المرض على رسول الله ، واتقدت حرارة العلة في بدنه .

فطلب أن يأتوا بماء يتبرد به ..ماء كثير !!: ((أهريقوا عليّ سبع قرب من آبار شتى)) .

قالت عائشة : فأقعدناه في مخضب لحفصة ، ثم صببنا عليه الماء ، حتى طفق **يقول** : ((حسبكم . حسبكم)).

وعندما أحس الرسول بأن سورة الحر تخلت عن بدنه ، استدعى الفضل ابن عمه العباس ، **فقال** : خذ بيدي يا فضل – وهو موعوك معصوب الرأس – **قال الفضل** : فأخذت بيده حتى دخل المسجد ، وجلس على المنبر . **ثم قال** : ((ناد في الناس))، فاجتمعوا إليه .

كانت ظهيرة تظللها الكآبة وتغمرها الرقة ، اشرأبت فيها الأعناق إلى الرجل الذي أحيا موات القلوب ، وأخرجهم وذرياتهم ونساءهم ، من الظلمات إلى النور ، تطلعت إليه الأعين الحائرة ، فرأته متعبا .

انهزمت العافية في بدنه الجلد ، أمام المرض العاتي .

إلا أنه أخذ يحدثهم ويربيهم ، على عهده به دائما . وأنصتوا ، فإذا هم يسمعون منه عجبا .. إنه لما أحس بدنو أجله ، أحب أن يلقى الله وليس هناك بشر يطلبه بتبعه .

إنه تحرى العدالة في شئونه كلها لكن من يدري ؟ربما عرض له سهو مما يعرض لبني آدم ، أو أخطأ ، فجار ، وهو الذي يبرأ من الجور وذويه !

إذا ليخطب الناس في هذا حتى يستريح ضميره .. فقال : ((أما بعد أيها الناس . فإني أحمد الله إليكم الله الذي لا إله إلا هو.

فمن كنت جلدت له ظهرا ، فهذا ظهري فليستقد منه ! ومن كنت شتمت له عرضا ، فهذا عرضي فليستقد منه !

ألا وإن الشحناء ليست من طبعي ولا من شأني . ألا وإن أحبكم إليّ من أخذ مني حقا !إن كان له ، أو أحلني منه فلقيت الله وأنا طيب النفس .

وقد أرى أن هذا غير مغن عني حتى أقوم فيكم مرارا)) .

قال الفضل : ثم نزل فصلى الظهر. ثم رجع فجلس على المنبر. فعاد لمقالته الأولى في الشحناء وغيرهم .

فقام رجل فقال : يا رسول الله .. إن لي عندك ثلاثة دراهم ؟

فقال : ((أعطه يا فضل)) .

ثم قال النبي : ((أيها الناس : من كان عنده شئ فليؤده ،

ولا يقل : فضوح الدنيا ، إلا وإن فضوح الدنيا أيسر من فضوح الآخرة))!

فقام رجل فقال : يا رسول الله عندي ثلاثة دراهم غللتها في سبيل الله .

قال : ((ولم غللتها)) ؟ **قال** : كنت محتاجا ..

قال : ((خذها منه يا فضل)) .

ثم قال : ((أيها الناس .. من خشي من نفسه شيئا فليقم أدع له)) .

فقام رجل فقال : يا رسول الله إني لكذاب ، إني لفاحش ، إني لنؤوم .

فقال النبي : ((اللهم أرزقه صدقا ، وإيمانا ، وأذهب عنه النوم)) .

ثم قام رجل اخر فقال : والله يا رسول الله إني لكذاب ، وإني لمنافق ، وما من شئ إلا قد جنيته .

فقام عمر بن الخطاب فقال له : فضحت نفسك .

فقال النبي : ((يا ابن الخطاب .. فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة اللهم أرزقه صدقا ، وإيمانا ، وصير أمره إلى خير)) [1]

١- فقه السيرة – الشيخ محمد الغزالي – صفحة (٣٩٦وما بعدها)

وهذا الكتاب عبارة عن نقاط وخطوط لمحاولة - نرجو من الله أن يوفقنا إليها - تحديد بعض - وليس كل - ملامح وسمات تلك الشخصية التي تعالت أن يحيط بها نظم من الشعر أو نثر من الخطب كما يقول الشاعر ،ومع ذلك فإن شخصية محمد - ﷺ - من البساطة والوضوح ما تجعل أي إنسان يكتب عنه ولكن ليس معنى أن كتبت عن شخصية أو قرأت عنها . أنك عرفتها حق المعرفة فما تزال النفس الإنسانية - للآن - سرا غامضا يستعصي على كل دراسة أو بحث ،فأنت عاجز عن معرفة حقيقة شخصية من يجلس بجوارك ، بل عاجز - وهذه حقيقة - عن معرفة نفسك التي بين جنبيك ، فما بالك بشخصية النبي ، والكثيرون يقولون أنهم يعرفون كل شئ عن شخصية النبي محمد منذ أن كان طفلا حتى توفاه الله . حتى أنهم ليلقون الخطب الطوال، ويدبجون المقالات في الجرائد والمجلات ، ومع ذلك فإن الكثيرين يجهلون الكثير والكثير عن محمد ، فالمعرفة - هنا - ليست ذات جدوى إن لم تقربك قربا حميما من شخصية النبي ، فقد تقرأ الكتب والمراجع عن شخصية النبي ، ولا تقترب قيد أنملة من شخصيته ، وقد تقرأ ورقة واحدة أو تسمع عنه ند ^ أو حديثا ، فتشعر أنك تعيش معه تجالسه تناقشه تحاوره تشعر به شعورا حقيقيا ، من لحم ودم وأعصاب ، حدث تواصل فكري ونفسي ووجداني وروحاني ، حدث نوع من ((التشرب)) لشخصياتهم ، وأظن أن الأنبياء لا يرتضون بديلا عن ذلك ، وقدكتبت في أحد فصول كتاب ((شخصية موسى النبي)) " لأنك مع شخصية النبى بصفة عامة مطالب أن تكون قريبا جدا منها وبالطبع هذا القرب ليس مكانيا ولا زمانيا ، لأنه محال ، ولكن القرب العقلى والدنو الوجدانى ، قريبا من تلك الآمال النبيلة والأهداف الشريفة والمقاصد السامية التى يسعى كل نبى أن يحققها ... رغبته الأكيدة والصادقة فى إسعاد البشرية بعد أن يخلصها من كل الشرور والأدران ، أمنيته أن يصوغ من الإنسانية المعذبة المشتتة المتنازعة المتفرقة كيانا واحدا متجانسا متراحما متفقا متوافقا مستمتعا بحياته ، محققا المقصود الإلهى من الوجود الإنسانى .

أن تكون قريبا جدا من تلك الروح المعذبة القلقة التى ما خلقت إلا لتجاهد جهادا عظيما ، وتكافح كفاحا جليلا ، من أجل إنقاذ الغرقى من بحار الإثم ، من أجل إحياء الموتى فى قبور الكفر والعصيان ، من أجل إرشاد الضالين فى صحراء الظلم والاستبداد ، من أجل تنبيه الغافلين عن الغاية والهدف من وجودهم في تلك الحياة .

أن تكون قريبا جدا من هذا الضمير اليقظ دوما ، الذى يضنى ويشقى نفسه من أجل أن يرتفع بالبشرية إلى مكان ومكانة تستشرف منه أنوار العبودية لخالق الكون ؛ لتشهد له بالوحدانية ، لأن جوهر سعادتها فى هذا التوحيد .

ومع موسى النبى – بصفة أخص – مطالب أن تكون مكانه ؛ لتشعر بما يشعر به ، تفكر فيما يفكر فيه ، أن تضع نفسك فى نفس المواقف التى ساقته الأقدار أن يكون فيها ، فهى مواقف نادرة وعجيبة ، لم يسبق لأحد من البشر أو الأنبياء أن مر بها ، مواقف قاهرة لمن لم يؤت قدرا من العزم والقوة والصلابة وإيمانا راسخا ثابتا برسالته .

مطالب أن تغوص فى أعماق وأغوار تلك النفس الجليلة النبيلة ؛ لتصل إلى المكون والمحرك الأول لكل أفعال وتصرفات تلك النفس العملاقة العظيمة .

مطالب أن تستبطن هذا المخلوق المتقد والمشتعل بنار ونور حب العلم والمعرفة ، والمشغوف والمتيم بالوصول إلى أقصى ما يسمح به العقل البشرى وبطيقه ، بل أن يتجاوز ذلك ليعى ويدرك ما وراء تلك الحدود .

مطالب أن تكون موسى الرؤية والإدراك والتصرفات والأفعال .

بغير هذا .... أنت لا تكتب عن النبى .... وإنما عن أى شخص آخر.

بغير هذا .... أنت لا تكتب عن موسى .... وإنما عن شخص آخر يشبهه أو يتسمى باسمه .

بدون كل هذا ، أنت تبعد عن الشخصية ، بل تنأى الشخصية عنك ... وبالتالى تضل عن الحقيقة أو تضل الحقيقة عنك .

ودعنا لا نبالغ – حتى وإن بالغنا – إذا قلنا إن شخصية النبى هى التى تختار من يكتب عنها.لأنها تضع شرطا واحدا لمن يريد أن يكتب.وهذا الشرط هو((الحب)) .

ولا نقصد بالحب هذا الميل أو النزوع الوجدانى الغامض والمبهم فى نفس الوقت نحو شخص بعينه ، وإنما نقصد بالحب هذه الرغبة المتأججة والمشتعلة والمحفزة والمثيرة للانسان أن يعرف أى شئ وكل شئ ، عن شخصية النبى ، ليست معرفة أو فهم أو وعى أو إدراك عقلانى ، وليست ـ ـ ـ ـ وجدانى ، وليست امتزاج كيانى . وإنما نوع من ((التشرب)) إلى حد الإرتواء بشخصية النبى .

سعى حثيث لا ينقطع ولا يتوقف ولا يفتر نحو تلك القمة من الكمال والتمام البشرى .

محاولة نبيلة لسبر أغوار تلك الشخصية التى وقع اختيار الله عليها لتكون رسولا عنه – عز وجل – إلى الإنسانية .

رحلة شريفة مع وفى تلك الشخصية التى نجحت أن تؤدى مهمتها وتقوم بدورها بكل شجاعة واقتدار ، فى أن تمهد وتذلل وتنير وتقيم طريقا إلى الله ، وتأخذ بيد الإنسانية لتهديها إلى خالقها وبارئها ، ومبدع هذا الكون العظيم ، وما فيه من دلائل وبراهين وعظات وعبر ، تمد سبيلا إلى القلب من الإيمان واليقين " [٢]

إذن الأمر مع الأنبياء – صلوات الله عليهم – بصفة عامة ، ومع النبي محمد بصفة خاصة ، أكبر من مجرد قراءة أو كتابة أو بحث أو دراسة .ولكن الأمر – كما قلت – نوع من ((التشرب)) . والتشرب في حاجة إلى حب . والحب في حاجة إلى المعايشة ،والمعايشة في حاجة إلى وقت ، قد يطول مستغرقا العمر كله ، وقد لا نصل إلى تلك الغاية الشريفة . وقد يقصر ، حتى أنك لا تشعر أنك أنفقت لحظات لتصل . وليس المهم أن نصل أو لا نصل ؛ لأن هذا الأمر ليس بأيدينا .ولكن حسبنا أن قمنا بأشرف محاولة وهي الاقتراب والدنو من أشرف وأطهر خلق الله ، محمد رسول الله .

٢- شخصية موسى النبى – محمود القليني – صفحة (٥، ٦)